محاضرات في البلاغة العربية

مدخل إلى تعريف البلاغة ونشأتها

توطئة:

هذه دروس مقدمة لطلابنا في البلاغة ؛ التي هي فرع من فروع اللغة العربية والتي من ضمنها علوم النحو والصرف ومختلف علوم اللسان.

والبلاغة علم للإبداع والفهم والتأثير في النفوس والإقناع ، وبه نعرف الإعجاز القرآني ، ولهذا جعل السيوطي في شرحه لعقود الجمان دراسة البلاغة من مكملات الإيمان .

وقبل التطرق إلى نشأة البلاغة العربية وبيان أقسامها وخصائصها جدير بنا أن نقدم تعريفا ولو مختصرا حول مفهومها في اللغة والاصطلاح؛ حتى وإن كان من الصعب علينا تحديد مفاهيمها وضبطها؛ وذلك لكثرة مدلولاتها التي احتوت عليها كلمة بلاغة حيث اتسعت لكل هذه المفاهيم ،خاصة وأنها مرت بأزمان متعددة وشهدت تحولات مختلفة؛ لكن منهج البحث يستدعي الوقوف على هذا المصطلح حتى وإن تعددت واختلفت مفاهيمه، وهذا ما سوف يشرع في تقديمه.

البلاغة لغة : البلاغة عند أهل اللغة هي حسن الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد. والرجل البليغ هو من كان فصيحا حسن الكلام يبلغ بعبارة لسانه غاية المعاني التي في نفسه، مما يريد التعبير عنه وتوصيله لمن يريد إبلاغه ما في نفسه .

وأصل مادة الكلمة في اللغة تدور حول وصول الشيء إلى غايته ونهايته، تقول لغة:بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا إذا وصل وانتهى إلى غايته.

وبلغ الغلام وبلغت الجارية إذا وصلا إلى انتهاء مرحلة مادون التكليف ودخلا في مرحلة التكليف ،ويقال: ذكر بالغ وأنثى بالغ و بالغة. [1]

ولما كانت الثقافة العربية القديمة تقوم على المشافهة ؛فقد اتجهت دلالة البلاغة فيها إلى الكلام لا إلى الكتابة،وهذا ما سوف يوضح من خلال أقوال بعض الأدباء حولها.

بلاغة الكلام في الاصطلاح: البلاغة في الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبها.

والحال(المقام):هو الأمر الذي يحمل المتكلم على أن يورد كلامه في صورة خاصة، فالمدح مثلا حال يدعو لإيرادها على صورة الإطناب،وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز ،فكل من المدح والذكاء حال ومقام وكل من الإطناب والإيجاز مقتضى.

ومقتضى الحال : هو تلك الصورة الخاصة التي ورد عليها كلام المتكلم.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال:هي اشتماله على هذه الصورة الخاصة [2]، والملاحظ من خلا هذا التعريف أن البلاغة خاضعة للذوق والذكاء وما على البليغ إلا أن يدرك متى يبدأ ومتى ينتهي من كلامه فمراعاته لمقتضى الحال ومراعاته للظروف المحيطة به وبالسامع هو عين البلاغة، فهي تقوم إضافة إلى الذوق والذكاء على **دعائم منها**:

- أولها : اختيار اللفظة.
- وثانيها: حسن التركيب وصحته.

– وثالثها : اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين مع حسن ابتداء وحسن انتهاء وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم يكون الكلام مؤثرا في النفوس والتأثير هو الدعامة الرابعة من دعائم البلاغة. [3]

أما بلاغة المتكلم في الاصطلاح فهي:ملكة أي صفة ثابتة مستقرة في ذات المتكلم بها تأليف كلام بليغ.

ولما كان كل كلام بليغ لا بد أن يكون فصيح المفردات والجمل كان كل كلام بليغ كلاما نصيحا، وكان كل متكلم بليغ متكلما فصيحا،لكن قد يكون الكلام فصيحا ولا يكون بليغا لأنّ الفصاحة أعلم من البلاغة أخص دائما فكل بليغ فصيح كلاما أو متكلما وليس كل فصيح بليغا،فالكلام الفصيح لا يكون كلاما بليغا حتى يكون مطابقا لمقتضى حال المخاطب به. [4]

فالبلاغة هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثرا خلابا مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون.

ومنه يتبين أن البلاغة هي فن من الفنون تعتمد على دعائم ومرتكزات عدة كالاستعداد الفطري، والإدراك ،والخبرة، والخيال الخصب ،والاكتساب ،والتمرن لغويا ونحويا،ومعرفة أحوال النفوس وطبائعها، والتعرف على مختلف البيئات والظروف المحيطة به،<< والبليغ إذا أراد أن ينشئ قصيدة أو خطبة فكر في أجزائها،ثم دعا إليه من الألفاظ والأساليب أخفها على السمع وأكثرها اتصالا بموضوعه ، ثم أقواها أثرا في نفوس سامعيه وأروعها جمالا.

فعناصر البلاغة ،إذا لفظ ومعنى وتأليف الألفاظ يمنحها قوة وتأثيرا وحسنا ؛ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم فربّ كلمة حسنت في موطن ثم كانت نابية مستكرهة في غيره، وقديما كره الأدباء كلمة << أيضا>> وعدوها من ألفاظ العلماء ؛فلم تجر بها أقلامهم في شعر أو نثر حتى ظهر بينهم من قال :

رُبّ ورقاء هتوف في الضحا ذات شجو صدحت في فنن

ذكرت إلفا ودهرا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزني

و لقد تشكو فما أفهمها و لقد أشكو فما تفهمني

غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

فوضع "أيضا " في مكان لا يتطلب سواها ولا يتقبل غيرها ، وكان لها من الروعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنها البيان، وربّ كلام كان في نفسه حسنا خلابا حتى إذا جاء في غير مكانه وسقط في غير مسقطه خرج عن حد البلاغة وكان غرضا لسهام [6] ومن أمثلة ذلك قول المتنبي لكافور الأخشيدي في أول قصيدة مدحه بها[7] **ديوان المتنبي**

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا.

وقوله أيضا:

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

قال الواحدي:هذا البيت يشبه الاستهزاء فإنه يقول: طربتُ عند رأيتك كما يطرب الإنسان لرؤية المضحكات، قال أبن جني لما قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلت له: ما زدت على أن جعلت الرجل قردا فضحك، ونرى أن المتنبي كان يغلي صدره حقدا على كافور وعلى الأيام التي ألجأته إلى مدحه، فكانت تفر من لسانه كلمات لا يستطيع احتباسها[8] .

إذن لا بد للبليغ أولا التفكير في المعاني والألفاظ والتأليف فيما بينهما حتى يكسب الكلمة جمالا وقوة،فالبلاغة ليست في اللفظ وحده برغم أهميته التي جعلت النحاة يعرفونه ويعقبون عليه كسيبويه الذي عده العلامة الإعرابية؛لأنه يرى أن الشكل اللفظي المتمثل في النصب يتبع معنى معينا ويوجه ويصحح عليه،كما أن الشكل الفظي المتمثل في الرفع يتبع معنى معينا آخر ويوجه ويصحح عليه[9].

وقال السيوطي"ما خرج من الفم إن لم يشتمل على حرف فصوت ، وإن اشتمل على حرف ولم يفد معنى فقول، فإن كان مفردا فكلمة أو مركبا من اثنين ولم يفد نسبة مقصودة لذاتها فجملة أو أفاد ذلك فكلام أو من ثلاثة فكلم"[10]،ويقول الشيخ الخالد الأزهري :" واللفظ في الأصل مصدر لفظت الرحى الدقيق إذا رمته إلى الخارج"[11].

وليست في المعنى وحده الذي لقي نفس الاهتمام من طرف النحويين واللغويين ؛فقصدوا به تارة المعنى الصرفي وتارة أخرى المعنى الدلالي والمعنى النحوي؛ بل في ائتلافهما مع بعض.

وبعد التطرق إلى مفهوم البلاغة في اللغة والاصطلاح لابد أن نتطرق إلى نشأتها وتطورها عبر التاريخ عند العرب والغرب،وهذا ما يستدعي الرجوع إلى ما وصل إلينا من أدب العرب ومنذ العصر الجاهلي حتى يتسنى التعرف على طرق التعبير عن أفكارهم وخواطرهم؛ فنبين بها

أساليب البيان المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وغير ها من أساليب معنوية وبديعية كانت تظهر عندهم؛ ومنذ البداية وبطريقة عفوية فطرية تعتمد على الذوق والدهاء .

ومن دون شك إذا تأملنا في الأدب الجاهلي وتاريخه وجدناه حافلا بالملاحظات النقدية التي كانت من أهم العوامل في إيجاد البلاغة ؛حيث أفادت العلماء حيث حولوها إلى أحكام وقوانين ومن بين هذه الأحكام ما هو عقلي لا يمكن إنكاره وهو أنه لا يصدق أنّ الشعر وصل إلى ما وصل إليه في تلك الفترة ،وأنّ الخطابة بلغت ذروتها وأنّ اللغة أخذت صورتها من غير ما أن يكون هناك عقل مدبر لذلك ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون وساروا عليها ،ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ،ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء ؛فانّ العقل لينكر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول.

والثاني: نقلي ،وهو ما أثر عنهم وما جاء عن خطبهم ووصفها سيما أنهم كانوا يفخرون بأنفسهم.

وعلى هذا يمكننا أن نتلمس بذور البلاغة العربية الأولى من خلال مناظرات الشعراء الجاهليين وأحاديثهم، وخاصة في أسواقهم الشهيرة؛حيث كان الحكماء وكبار الشعراء يتصدرون مجالس الحكم وينقدون الشعر ويحكمون للجيد بجودته و للرديئ بردائته، ومن تلك الأحكام النقدية والملاحظات الفطرية التي تعتمد على الذوق العربي الأصيل بدأت تتكون البلاغة فنا جميلا بين فنون اللغة العربية ،تمتاز بذكاء الفطرة وجمال الفكرة. [12]

من ذلك ما روى عن النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة أدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء؛فتعرض عليه أشعارها فيصدر عليها أحكامه التي تصور الدرجة التي بلغها تجويد الشاعر[13]، وحديثه مع الأعشى والخنساء خير دليل على ذلك؛ حيث أنشدته ترثي أخاها صخرا والتي تقول فيها:

و إن صخرا لمولانا وسيدنا وان صخرا إذا نشتوا لنحار

و إن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار [14]

فيعجب النابغة بقولها ويقول لها :(لولا أن أبا بصير أنشدني أنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس) ويسمع حسان هذا الحكم على الخنساء فتأخذه الغيرة ويذهب به الغضب، فيقول للنابغة: أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك... فيقبل عليه النابغة فيسأله: (حيث تقول ماذا؟). فيقول حسان أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

لكن النابغة لا يعجبه هذا التصوير من حسان فيقول له: أنت شاعر ولكنك أقللت من جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح؛لأن الضيف في الليل أكثر وقلت يقطرن من نجدة دما ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم.

وسواء أن صحت هذه الرواية أم لا فإنها على أية حال تعطينا صورة واضحة عما كان يجري بين الشعراء في ذلك العصر وانطلاق الأحكام من الشعر نفسه بالنظر في خصائص لغته ، والاقتناع بأنّ الألفاظ وان كانت من نفس الحيز الدلالي؛ فانّ بعضها ألصق بالموضوع من بعضها الآخر وأكثر ملائمة للمعنى الذي قصده الشاعر، ومن هنا أتت ضرورة التفكير فيها واختيارها طبق الغرض.

ومن ذلك ما روى أيضا عن طرفة بن العبد أنه لاحظ على المسيب بن علس أنه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة قال ساخرا :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصعيرية مكدم

فالصعيرية سمة في عنق الناقة لا في عنق البعير[15] ،وتدخل أيضا ضمن دائرة المفاضلة بين الشعراء من منطلق الانطباع والتعليل للشعر في حد ذاته بعيد عن كل تصور للفن الشعري ما دار بين أم جندب زوجة امرئ القيس حين عرض عليها أن تقضي بين زوجها وبين علقمة الفحل،فحكمت لعلقمة وقالت لزوجها " علقمة أشعر منك قال: كيف ؟ قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق دره وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك زمريته فأتعبته بساقك، وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه ولم يضربه ولم يتعبه .

فواضح من هذه الرواية أن علقمة تفوق على امرئ القيس لا بفنه الشعري وإنما بتعبيره أكثر منه عن طبيعة الحياة الجاهلية،فوصف سرعة جواده طبق قوانين الأصالة عندهم[16]. ولعل من أشعار الجاهليين من مثل قول زهير:

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاذا من لفظنا مكرورا [17]

وقول **عنترة:**

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم[18]

لعل في هذا القول ما يدل على أن العرب قد فطنوا إلى مفهوم البلاغة القائم على التعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة للدلالة عليه،كما يدل على أنّ عنترة وهو الشاعر الجاهلي القديم كان يعد نفسه محدثا ؛قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه، ولم يغادروا له شيئا.

ويدخل في هذا الباب أيضا ما عرف عن عرب الجاهلية من كثرة الخطباء البلغاء وما أثر عنهم من شدة اعتزازهم بالبيان، وفي هذا يقول ضمرة : " إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان وإن قال قال ببيان"؛ويحدثنا **الجاحظ** بأن الجاهليين عرفوا عيوب البلاغة والخطابة مستدلا على ذلك بما يرد في اللغة من الأضداد فيقول:<< وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل و السخيف و المليح و الحسن و القبيح و السمج والخفيف و الثقيل وكله عربي،وبكل قد تكلموا و بكل قد تمادحوا وتعايبوا فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العيي و البكي و الحصر و المفحم و الخطل و المسهب و المتشدق و المتفيقه ولو أن هذه الأمور قد كانت تكون

في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك هذا ؛وقد وصف العرب كلامهم في أشعارهم كبرود العصب وكالحلل و المعاطف و الديباج و الوشي و اشتباه ذلك>>[19].

كما وصفوا شعراؤهم وأضفوا عليهم ألقابا كالمهلهل و المرقش و الأفوه و النابغة وغيرها وهذه الأوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم الذي ميزوا فيه بين شاعر وشاعر[20].

كذلك كان العرب يستعملون في الجاهلية ألفاظا عدة ؛من مثل المخضرم وصفا للناقة التي قطع طرف أذنها و للكثير من كل شيء ،و لكنهم لم يعرفوها للدلالة على كل من أدرك الجاهلية و الإسلام وكانوا يستعملون لفظة " صرور أو صرورة" وصفا للممنوع المحبوس ، فيقولون: رجل صرور أو صرورة، أي ممنوع محبوس ولكنهم لم يعرفوا استعمال هذا الوصف للدلالة به على من لم يحج قط إلا بعد الإسلام وكانوا يعرفون التيمم بمعنى التعمد والقصد يقال:تيممتك أي تعمدتك وقصدتك ولكنهم لم يعرفوها بمعنى مسح الوجه واليدين بالتراب[21].

فالعرب في الجاهلية كانوا إذن ـكما يرى الجاحظـ يحسون بفطرتهم مواضع البلاغة ويستعملونها دون تعريف لها ؛فسليقتهم تقودهم إلى استعمال كل ما هو بليغ دون التعرف عليها .

كما كان بعض الشعراء في الجاهلية يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن ينشروها بين الناس أمثال زهير بن أبي سلمى و الحطيئة وغيرهما، نلمس الجاحظ يقول في ذلك:<< ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عيارا

على شعره إشفاقا على أدبه وإحرازا لما حوّاه الله تعالى من نعمته وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات ليصير قائلها خنذيدا وشاعرا مفلقا >>[22]؛ فهي من دون شك خير الأشعار وهذا بشهادة الحطيئة الذي قال عنها:خير الشعر الحولي المحنك>>؛وقال الأصمعي :<< زهير بن أبي سلمى و الحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين>> [23].

فمن شعر الحطيئة الحولي ما يلي :

تحنن عليّ هداك المليك فانّ لكل مقام مقالا

أما شعر كعب بن زهير يقول :

فمن للقوافي شانها من يحكوها إذا ما ثوى كعب وفوز جرول

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا تنخل منها مثل ما تتنخل

نثقفها حتى تلين متونـــها فيقصر عنها كل ما يتمثل [24].

إنّ وقوف الشعراء عند قصائدهم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقد السامعون؛حيث كانوا يدققون في اختيار الألفاظ و التأليف بينها وبين المعاني التي تعبر عن هذه الألفاظ ؛وهي كلها تعتبر تمهيدات لظهور البلاغة في عالمنا.

كما وجدت بعض التشبيهات والاستعارات والمقابلات والجناسات وغيرها من المحسنات البديعية و البيانية المتناثرة هنا وهناك؛ مما يدل على أنهم كانوا يهتمون بالكلام وتنميقه قبل إخراجه إلى الوجود؛وهذا ما أكده ابن رشيق بقوله:<< العرب كانت تنظر في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى و إبرازه و إتقان بنية الشعر وإحكام القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض>>[25].

لكن سرعان ما بدأت تتحدد معالم البلاغة أكثر بعد ظهور الإسلام وانتشاره في ربوع الأمة ،فبدأ العلماء يلتفتون إلى الإبداع الذي جاء به القرآن الذي أنزل بلسان عربي فصيح ومبين ،فأخرس بفصاحته فصحاء العرب وأذهل ببلاغته فرسان البلاغة، فاستهواهم بآياته << فحاول أمراء البيان و سادات القوافي أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو حتى بآية مثله فما استطاعوا وعجزوا عن مجاراته ومعارضته وعز عليهم عجزهم وفشلهم فقالوا: هو شعر أو كهانة أو سحر ولو كان شيئا من ذلك الذي قالوه لاستطاعوا أن يأتوا بمثله>>[26].

ولا شك أنّ المقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب غيره قد استدعت التنبه إلى المميزات اللفظية والمعنوية والنظر في أساليب البيان والرغبة لدى علماء العربية في تفهم القرآن دفعتهم إلى البحث في بلاغته وقد أدى هذا الاتجاه بدوره في العصور الأولى إلى ظهور العديد من الكتب التي تبحث في معاني القرآن ومشكله و مجازه ونظمه و اعجازه كأبي عبيدة معمر بن المثنى الذي ألف كتابا في مجاز القرآن والحسن بن جعفر الرحى ألف كتابا في الرد على من نفى المجاز من القرآن ، وللجاحظ كتاب نظم القرآن ،وكتاب مسائل في القرآن ولابن الإخشيدي المعتزلي

كتاب في نظم القرآن،وللحسن بن جعفر البرجلي كتاب البيان عن بعض الشعر مع فصاحة القرآن [27].

فالرغبة في تفهم أسلوب القرآن و مجازه وقدرته العظيمة في الإبداع دفعت علماء العربية إلى البحث في بلاغته وحكمته مما أدى إلى ظهور تلك الكتب التي تبحث في معاني القرآن وألفاظه ونظمه وإعجازه .

ولم يكتف العرب بالبحث عن إعجاز القرآن فقط؛ بل اتجهوا أيضا إلى التأليف في ميدان علوم اللغة خاصة بعد انتشار الفتوحات الإسلامية ودخول العديد من الناس في دين الله وذلك بعدما اختلط السكان الأصليون للبلاد بالأعاجم في ظل انتشار الدين الإسلامي "هذا ما ساعد في ظهور كلمات أعجمية على ألسنتهم مثلما غزت العربية ألسنة العجم وكان من نتيجة ذلك أن وقع بعض الاعوجاج في السنة بعض العرب فخاف الحرصاء على اللغة من أن تفسد ملكة العربية ويضطرب لسان أهلها وقد كان هذا الخوف ظاهرة صحية فمنه كان الانطلاق نحو التأليف في علوم اللغة ،وتوجهت عناية العلماء أول ما توجهت إلى ما يحفظ هذه اللغة من جهة الإعراب والبناء وهو ما عرف بعد بالنحو، والى ما يحفظها من جهة تصريفها وبنيتها وهو ما عرف بعد بالصرف؛ ثم إلى ما يحفظها من جهة مادتها وهو ما عرف بمتن اللغة ،ومن أمثلة ذلك ما دار بين أبو يعقوب الكندي الذي قصد أبا العباس ليقول له: أني لأجد في كلام العرب حشوا و يسأله أبو العباس عن الموضع الذي وجد فيه ذلك الحشو فيقول له: أجدهم يقولون: عبد الله قائم ثم يقولون أنّ عبد الله قائم ثم يقولون: أن عبد الله لقائم، الألفاظ مختلفة والمعنى واحد و يجبهه أبو العباس بقوله : المعاني مختلفة فالأول إخبار عن قيامه

والثاني جواب عن سؤال والثالث جواب عن إنكار منكر، وقد كان هذا الرد من أبي العباس هو الأساس الذي أقاموا عليه علماء البلاغة فيما بعد ما سموه أضرب الخبر "[28].

وكان للعرب في الإسلام مجالس أدبية تشبه مجالس الجاهلية ولكنها كانت أكثر منها تنوعا كانت هناك مجالس خلفاء وولاة وهذه كانت معرضا للشعر وموضعا لإثارة كثير من المسائل الأدبية والفنية ،وللنظر في ألوان الأدب وما فيها من جمال التصوير[29].

من بين العرب الذين اهتموا بالبلاغة والبيان نجد الخلفاء الراشدون أمثال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛حيث كان يفاضل بين الشعراء في تلك المجالس؛ فحدث أن فضل النابغة عن غيره من الشعراء ،فيقول: هو أحسنهم شعرا و أعذبهم بحرا و أبعدهم قصرا [30].

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان هو أيضا يفاضل بين الشعراء ؛ففضل زهير بن أبي سلمى لأنه لا يعاضل في الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه [31].

أما علي كرم الله وجهه فكان من أنصار السهولة في التعبير فعرف البلاغة بأنها:<< إيضاح الملتبس بأسهل عبارة >>[32] .

مما تقدم نستطيع القول أن البلاغة في العصر الإسلامي الأول عصر صدر الإسلام لم يدون لها علوم ولم توضع لها مصطلحات واضحة ؛فهي عبارة عن ملاحظات تقدم للشعراء وتوجيهات نقدية نابعة من الذوق العربي السليم.

وإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي الثاني؛ أي العصر الأموي نجد الازدهار الكبير للخطابة << حيث بلغت عناية الخطباء بها مبلغا عظيما وراحوا يفتنون في طولها وقصرها على حسب المقتضيات ويتخيرون لها من الألفاظ أحسنها وأنسبها ويتجنبون منها كل ما يثقل على اللسان

نطقه وعلى السمع وقعه،كما يتجنبون كل غريب يعوق سرعة الإفهام،فاهتمام أولائك الخطباء ومحاولتهم الارتقاء بأساليبهم البيانية وتنويعها تدل على إدراكهم لبعض أسرار البلاغة التي تكسب القول جمالا و تأثيرا في النفوس>>[33].

ونجد علمين بارزين في ميدان الكتابة و الأدب هما عبد الحميد الكاتب وابن المقفع ، أما عبد الحميد الكاتب؛فكان زعيم الكتاب في عصره وصاحب مذهب منفرد في البلاغة والبيان وهو أول من خطا بالنثر الفني خطوة واسعة إلى ميدان الأدب الفسيح و أول من عني بالمحسنات اللفظية واستعملها برقة وبراعة فائقة وكانت طريقته في الكتابة مدرسة سار عليها الكتاب من بعده إلى عهد ابن العميد؛ لذا قيل: بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

و أما ابن المقفع:فقد تأثر بالثقافة الأجنبية الفارسية مما جعله يميل في كتابته إلى الإسهاب والإطناب والتحليل والتفريع ولعل أول من شرح البلاغة وفسرها تفسيرا فنيا إلى حد ما هو ابن المقفع حيث قال عنها مجيبا على سؤال طرح له: قال البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت؛ ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ؛ومنها ما يكون في الحديث؛ ومنها ما يكون في الاحتجاج؛ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ؛ومنها ما يكون شعرا ؛ومنها ما يكون سجعا وخطبا ؛ومنها ما يكون رسائل .[34]

وبعد ذلك بحوالي قرن من الزمان ظهرت طائفة من العلماء أطلق عليهم علماء الكلام اتجه هؤلاء العلماء إلى دراسة إعجاز القرآن الكريم ؛وما يقوم عليه من ظواهر بلاغية وصارت معرفة البلاغة أمرا دينيا[35].

وكان **بشر بن المعتمر** واحدا من هؤلاء المتكلمين الذين انتهت إليهم زعامة المعتزلة ببغداد؛حيث حاول أن يوضح فيها معالم و أسس صناعة البيان؛ وما يهمنا في هذه الصحيفة يتلخص في ما يلي:

– أن يتخير أنسب الأوقات للإنتاج الأدبي،فيكون الكاتب أو الأديب مهيأ في كل وقت للإلهام و الإبداع.

– أن يبتعد عن التوعر المؤدي إلى التعقيد الذي يقضي على المعنى ويعيب اللفظ[36].

اللفظ والمعنى:فكل عين وغرة من الكلام " لفظ شريف ومعنى بديع"، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك و يشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما، فليلتمس لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما"[37]؛فقد سوى بشرا بين اللفظ والمعنى وما على البليغ إلا الاهتمام بهما ؛فهما معيارا للجودة أو الرداءة .

–مطايقة الكلام لمقتضى الحال :وفيه يقول بشر :"إن مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال" ويقول :"وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ؛فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حال من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" [38].

وهاتان النقطتان أي اللفظ والمعنى ومقتضى الحال من أهم ما تدور حوله الدراسات البيانية التي أبان معالمهما المتكلمون وبشر بن المعتمر واحدا منهم.

-على كل من يتعاطى صنعة الأدب إلا يعجل أو يضجر إذا لم تسعفه طبيعته بالقول في أول وهلة بل عليه أن ينصرف عن المحاولة بعض الوقت ثم يعاودها عند نشاطه وفراغ باله فقد تستجيب له طبيعته ويواتيه القول دون عناء وتكلف[39].

إذن من الملاحظ أن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع كانا لهما الدور الكبير في إرساء أوليات البلاغة العربية،كما ذكرنا سابقا وأكدها بشر بن المعتمر بإرسائه لركائز البلاغة حتى ظهر الجاحظ و أبو هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم ممن استمدوا ما كتب عن البلاغة من صحيفة بشر .

أولهم الجاحظ جاء بعده " بشر بن المعتمر" ونقل تلك الأسس عليه ، فقد ترك لنا ثروة ضخمة من أثمنها كتابه البيان والتبيين الذي تعرض فيه لموضوعات البيان والفصاحة والبلاغة ونقل أقوالا كثيرة البلاغة وعلق على بعضها شرحا وتعليقا من ذلك قوله :"حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة ؟ قال كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ" وقال :"وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات؛ فمنها الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا و تعايبوا"[40] .

وهكذا نجد الجاحظ في كتاب البيان و التبيين تعرض لكثير من فنون البلاغة حيث ذكر الألفاظ، والمعاني ،ومطابقة الحال، والجزالة ،والإطناب، والإيجاز ،والبديع ،والتشبيه وغيرها كما ذكر في كتابه الحيوان وفصل في الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة .

و بعده ظهر الشاعر العالم عبد الله بن المعتز المتوفى سنة (296)هـ احتل في الشعر منزلا عليا ألف كتاب البديع وجمع فيه سبعة عشر نوعا بديعيا وقال في مفتتحه :<< وما جمع قبلي فنون البديع احد ولا سبقني إليه مؤلف>>[41] .

وكان اهتمام ابن المعتز منصبا في تقسيم أبواب محاسن الكلام والاستشهاد لها؛ فهو يتحدث عن الاستعارة والطباق والجناس والاعتراض وغيرهما مما يتصل بالصنعة الشعرية والصياغة الفنية ،وتبدو أهمية عمل ابن المعتز في كتابه البديع من وجهين :

- أنه حدد خصائص مذهب البديع.

- أثر في النقاد والبلاغيين اللاحقين له [42]؛خاصة بعد الدعوة الصريحة له بالاقتداء حيث قال: من أحب أن يقتدي بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره" وقد كانت هذه دعوة من ابن المعتز استجاب لها و إياها معاصره قدامة بن جعفر المتوفى سنة(337) هـ[43]؛ وهو مؤلف كتاب نقد الشعر الذي عرض فيه حده للشعر وأسباب تقديمه والنعوت المستحسنة لكل من اللفظ والقافية وخص الترصيع بعناية خاصة ثم عرض للمعاني التي يدل عليها الشعر و المستجاد في كل معنى وأضاف إلى ما ذكر ابن المعتز من أنواع البديع ثلاثة عشر نوعا هي: التقسيم و الترصيع و المقابلات و التفسير و

المساواة و الإشارة وائتلاف اللفظ مع الوزن و التمثيل و التوشيح و الإيغال وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية و الإرداف.

أما كتابه "جواهر الألفاظ" فقد جمع فيه ألفاظا و عبارات مترادفة مع تساوقها في الوزن والقافية أو في الاثنين معا وذكر في مقدمته طائفة من الأنواع البديعية[44].

و بعد قدامة نجد أبا هلال العسكري المتوفى سنة(395)هـ صاحب كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر ونلاحظ أنّ أبا هلال العسكري قد درس الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض و التذييل والاعتراض، وجعل الكتاب أبوابا تناول فيها تمييز جيد الكلام من رديئه ومعرفة صناعة الكلام وحسن السبك وجودة الرصف والإيجاز والإطناب والسرقات الشعرية والتشبيه والسجع والازدواج وفي مجال البديع أضاف إلى ما أتى به سابقوه سبعة أنواع هي التشطير والمجاورة والتطريز والمضاعفة والاستشهاد والتلطف والمشتق[45]،كما ظهر في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري ابن رشيق القيرواني وهو مؤلف كتاب العمدة؛فهو أشهر مؤلفاته على الإطلاق ؛وقد وزعه على نحو مائة باب حاول فيه أن يجمع كل ما كتب عن صناعة الشعر ومسائله البيانية والبديعية عند المصنفين قبله[46]؛و غير ذلك من فنون البلاغة ومباحث علومها وقد ظلت هذه المباحث مختلطة وغير مميزة حتى عند عبد القاهر الجرجاني الملقب بشيخ البلاغة المتوفى سنة (481)هـ نقول ذلك على الرغم من أنه أول من هذب مسائلها وأرسى قواعدها وبوبها ورتبها في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

وعبد القاهر ينظر إلى المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية على أنها عمد الإعجاز وأركانه والأقطاب التي تدور البلاغة عليها وفي ذلك يقول:"ولم يتعاط أحد من الناس القول في الإعجاز

إلا ذكرها وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية وخصوصا الاستعارة والمجاز فإنك تراهم يجعلونها عنوان ما يذكرون و أول ما يوردون"[47] .

وكتاباه درسهما واستوعبهما محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة (531)هـ يلمس ذلك بوضوح من يقرأ كتابه القيم الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل؛ فالزمخشري هو أول من فصل فصلا تاما بين علمي المعاني و:" لن أملأ العلوم بغمر قرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم" ،و إذا وجدنا في الكشاف بعض الفنون البديعية فإنها جاءت لمحا لا شرحا ولا عجب فالفنون البديعية المكونة لعلم البديع لم تأخذ من اهتمام المتكلمين عن إعجاز القران الكريم والبلاغة فيه إلا اقل القليل

وإذا بحثنا لذلك عن دليل فإننا نجده فيما نقله السيد الجرجاني عن الزمخشري نفسه من أنه لم يكن بعد البديع علما مستقلا بل كان يراه ذيلا لعلمي المعاني والبيان، ونجده فيما كتبه محمد بن علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة (729)هـ قال :<< إن نسبة صناعة البديع إلى صناعتي المعاني والبيان نسبة صناعة النقش إلى صناعة النساجة إلا أنه يمكن إفراد صناعة النقش ما لم يكن ذاتيا عن صنعة ما غير النقش؛ ولذلك قد يتغاير الصانعان ولا يمكن إفراد صناعة البديع عن صناعتي العلمين لأنهما صفة ذاتية للكلام ويمضي فيقول:لا يستحق المتكلم الموقع في كلامه صناعة البديع المدح بالإطلاق إلا بعد رعاية شرائط البلاغة، كما إن البناء لا يستحق المدح بالإطلاق على بنائه إلا بعد رعاية دقائق صنعته كلها >>.

ولما كان الكشاف كتابا في التفسير لا في البلاغة فقد كان طبيعيا أن تأتي الفنون البلاغية فيه كما أتت فيما سبقه وما لحقه على حسب مجيئها في سور القران الكريم ومن خلال آياته ولا ننتظر وهذا هو واقعها في القران الكريم وفي تفاسيره أن تكون مرتبة الترتيب الذي نراه في كتب البلاغة منذ السكاكي.

فهذا هو عمل السكاكي المتوفى سنة (126)هـ وتلك هي مأثرته فقد ألف كتابه مفتاح العلوم وجعله ثلاثة أقسام بسط في القسم الثالث منه علوم البلاغة بما سمح له أن يقول عن نفسه :" أنه قضى بتوفيق الله منها الوطر" ؛وقد جعل كل ما يتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال (علم المعاني) وكل ما يخص إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه (علم البيان) أما ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ؛فقد جعله (علم البديع) [48].

بالرغم من أن هذا الأخير قد ساء حاله وهذا ما ذكره أحمد موسى حين قال: " إن البديع ساء حاله على يد السكاكي ولم يعد بديعا فقد أخذ يتحدد رويدا رويدا إلى هاوية الإسفاف والانحطاط ويفقد صبغته الأدبيه التي أبرعته في معرض الإشراق والإعجاب ويتعثر في قيود ضيقة قادها له المنطق والفلسفة حتى صار العلماء تحديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها، كما تحدد الكمات اللغوية"[49].

ولم يأت بعد السكاكي من أضاف إلى مباحث البلاغة إضافة تذكر ،فكل من جاء بعده بظله استظل ومن بستانه قطف، كان قصارى جهدهم أن تناولوا كتابه بالاختصار تارة وبالشرح تارة أخرى.

ونجد أيضا مختصرات الخطيب القزويني المتوفى سنة (739)هـ ،وقد ضمنه القواعد الموجودة في القسم الثالث من المفتاح بعد أن دعمها بما كان ينقصها في موطنها الأصلي من الأمثلة والشواهد وقد شرق هذا التلخيص وغرب وشرحه عدد كبير من علماء اللغة ولعل القزويني قد خاف على تلخيصه من شرح غيره له فشرحه بنفسه في كتابه الإيضاح يقول في مقدمته :" أما بعد فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجملة وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم من كلام الشيخ الإمام الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز" [50].

وأما ضياء الدين بن الأثير فقد ألف فيما به صلة بالبلاغة كتابه المشهور المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وكتابا آخر هو "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور" وقد تضمن المثل السائر مقدمة ومقالتين انطوت المقدمة على حديث عن أصول البيان وتضمنت المقالتان الحديث عن فروع البيان وقد خصص الأولى للصناعة اللفظية و الثانية للصناعة المعنوية [51].

إذن مثلما لاحظنا أن البلاغة مرت بمراحل عديدة إلى أن تحددت معالمها و استقرئت قواعده،وقد مثل كل مرحلة من هذه المراحل عدد من الدارسين المبرزين الذين أسهموا في تأسيس العلم وتطويره واجتهدوا في وضع النظريات والتصورات والمصطلحات التي تخصه وتحده وقد كانت أولى هذه المراحل تلك التي عنيت بتسجيل الملحوظات ومثلها عدد من الأدباء والعلماء الأعلام منهم أبو عبيدة(208)هـ والجاحظ(255)هـ وابن قتيبة(276)هـ وغيرهم

وجاءت المرحلة الثانية التي اهتمت بوضع الدراسات والأبحاث ذات الطابع الأدبي والعلمي المميز وقد ظهر في رحابها عدد من الدارسين والنقاد البارعين منهم من عني بدراسة الإعجاز القرآني مع السعي إلى الكشف عن خصائصه اللغوية من أمثال الرماني (386)هـ والباقلاني (403)هـ والخطابي (388)هـ ومنهم من عني بدراسة الأدب بصورة عامة مثل قدامة بن جعفر (337)هـ وعبد الله بن معتز (296)هـ وأبو هلال العسكري(395)هـ ثم جاءت مرحلة الازدهار التي أفادت كثيرا من الدراسات التي سبقتها وأضافت إلى علم البلاغة نظرات جليلة ونظريات جديدة كان لها الفضل في تأسيس هذا العلم وصياغته وتطوره مضمونا ومنهجا وأسلوبا ومثل هذه المرحلة خير تمثيل شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (471) أو(474)هـ وأما المرحلة الرابعة فقد كانت معنية بتحديد المصطلحات وصياغة القواعد النهائية لهذا العلم ومثل هذه ا لم رحلة خير تمثيل أبو يعقوب السكاكي (626)هـ وتلميذه القزويني(739)هـ ومع أن أغلب الدراسات استمرت بعد ذلك في السير على ما قرره السكاكي و القزويني إلا أن هذه المرحلة عرفت بعضا من العلماء المجددين الذين أضافوا إلى الدرس البلاغي من النظرات والأفكار ما لا يمكن إنكاره من أمثال ابن الأثير(637)هـ وحازم القرطاجني(684)هـ والعلوي (749)هـ. [52].